حقيقة مقابل تقليد

(مرقس ٦:٥٣-٧:٣٠)

تأليف: جو شوبيرت

في المسرحية الموسيقية التي هي بعنوان «عازف على السطح»، افتتح بطل المسرحية المناسبة بغناء: «تقليدي.» بُنِيّ المجتمع اليهودي كله على تقاليد الماضي القديمة القوية. وجوهر المسرحية الموسيقية الغير معلن هو كيف كانت تنتزع تلك التقاليد القديمة، وتغير، وكيف قوبلت بالمعارضة من قبل كل المضطربين في تلك الأيام. أنها نطقت بالحزن والأسف، والمشقة التي تتبع عندما تضطرب التقاليد.

هذا المشهد يماثل مشهدا في إنجيل مرقس الذي يرسم تباين قاطع بين يسوع من ناحية والكتبة والفريسيين من ناحية أخرى. كانت خدمة يسوع التبشيرية مليئة بالمساعدة وبمحبة الناس رجالاً ونساء في كل مكان، بينما كان الكتبة والفريسيون متمسكين بتقاليدهم، ينتظرون لينهوا الخدمة التبشيرية لربنا. تصف الكلمات الختامية للأصحاح السادس من إنجيل مرقس نوع الخدمة التي يقوم بها يسوع. يسجل مرقس البشير ما يلي:

> فلما عبروا جاءوا إلى أرض جنيسارت وأرسوا. ولما خرجوا من السفينة للوقت عرفوه. فطافوا جميع تلك القرى المحيطة وابتدأوا يحملون المرضى على أسرة إلى حيث سمعوا انه هناك. وحيثما دخل إلى قرى أو مدن أو ضياع وضعوا المرضى في الأسواق وطلبوا إليه أن يلمسوا ولو هدب ثوبه. وكل من لمسه شفى؛ (آيات ٥٣-٥٦).

هذه صورة جميلة لهذا الطور من الخدمة التبشيرية لربنا. كان الناس يأتون بمرضاهم إلى يسوع لكي يلمسوا طرف ثوبه. ويقول مرقس البشير: «كل من لمسه شفى.»

١. التقاليد والله (مرقس ٧:١-٨)

في تباين مع هذا المشهد، ينتقل مرقس البشير إلى قصة قوم من الفريسيين والكتبة الذين صعدوا إلى الجليل ليفحصوا يسوع وخدمته التبشيرية. توصفها الآيات الأولى من الأصحاح السابع كالآتي:

> واجتمع إليه الفريسيون وقوم من الكتبة قادمين من أورشليم. ولما رأوا بعضاً من تلاميذه يأكلون خبزاً بأيد دنسة أي غير مغسولة، لاموا. (لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم باعتناء لا يأكلون. متمسكين بتقليد الشيوخ. ومن السوق إن لم يغسلوا لا يأكلون. وأشياء أخرى كثيرة تسلموها للتمسك بها، من غسل كؤوس وأباريق وآنية نحاس وأسرة.)

تقدم هذه الفقرة قوة وتأثير التقاليد. كان من الواضح، أن الاخبار تتفشى عن شهرة يسوع. فاضطرب رئيس الكهنة وقادة اليهود في أورشليم من هذه الأخبار. جاءوا من أجل هدف معين ليجدوا شيئاً في خدمة يسوع التبشيرية ليعارضوه بها. فوجدوا ما كانوا يطلبونه في عدم تمسك يسوع وتلاميذه بالتقاليد. إذا أوضحوا هذا بجلاء للشعب، فسيثيروا الجمع على يسوع. كيف كان اهتمام الشعب اليهودي بالتقاليد! قال اليهود: «يجب العمل بالتقاليد

تحت كل الظروف.»

التقاليد التي اختارها هؤلاء الناس للتأكيد عليها هي: غسل الأيدي بطريقة معينة قبل الأكل. وعندما راقبوا يسوع وتلاميذه، رأوا بعضهم لم يغسلوا أياديهم بالطريقة المطلوبة قبل ان يأكلوا. فانزعج الفريسيون من هذا. انهم لم يقصدوا المفهوم الصحي للغسل؛ بل كانوا يتكلمون عن تقليد معين. كما يعتبر اليهود، يمكن للشخص ان يغسل يديه بأجود أنواع الصابون الذي يمكن الحصول عليه، ويمكن ان يفرك يديه جيدا كما يفعل الطبيب الجراح عند استعداده للعملية، ومع ذلك يظل غير نظيف حسب الطقوس الدينية.

انه طبع قاسي بين اليهود أن يغسلوا أياديهم بطريقة ما. أولاً: يمدوا أياديهم بكفيهم نحو الأعلى، مائلة قليلا نحو الأسفل. وعندما يصب الماء على يد واحدة، يستخدم قبضة اليد الأخرى ليفرك كف اليد الأولى. وباستمرار صب الماء على أياديهم، يغسل اليد الأخرى بالكيفية ذاتها. ثم يقلبوا أياديهم بحيث تكون الأصابع متجهة نحو الأسفل، ويصب الماء النقي على اليدين كلاهما ليغسل ما بقى من الماء النجس من الفرك الأولي. إن لم يتبع الشخص هذه الطقوس، يعتبر نجساً. يمكن لاحد ان يكون نظيفا صحياً، ورغم ذلك يبقى نجساً حسب الشعائر والطقوس الدينية. كان هذا راسخاً في عقل اليهود بان إذا ما تم سجن واحد من معلمي اليهود بسب إنتهاك ما، فانه يستعمل الماء النقي الذي أعطيّ له للشرب في زنزانته المنعزلة ليغسل يديه على حسب الطقوس الدينية بينما يكاد ان يموت عطشاً.

أظن بان هذه التقاليد بدأت بطريقة صحيحة. على سبيل المثال، كانوا يحاولون ان يتمموا شريعة موسى. يطلب سفر اللاويين ان يتم الغسل بطريقة معينة لكي تعلم الشعب كيف يتعامل مع الخطية. كان هذا هدف الذين يعملون بالظاهر لشريعة موسي. وكان ما يعنوه تماماً يزيد من الطقوس الخارجية. ولكن بدأ الكهنة اليهود يقترحون طريقة مميزة لغسل الأيادي، وفيما بعد، أضيفت التفسيرات. وهكذا على مر السنيين، تراكمت تقاليد هائلة. موضحةً كل التفاصيل لتطبيق متطلبات الشريعة. وتعرف هذه التفاسير الهائلة بالقوانين الشفهية لليهود.

هذا النص من إنجيل مرقس يذكر أيضاً غسل الكؤوس والأباريق والآنية التي قد تنجس. يضم الـ «ميشنا» اي تقاليد اليهود المدونة على عدد لا يقل عن اثنتي عشرة موضوع بحث مطولة لهذا النوع من التنجيس، موضحاً بالتفصيل أنواع الأواني التي قد تصير نجسة. قد تصير طاولة ذات أربع أرجل نجسة في حين لا تصير نظيرتها ذات الثلاثة أرجل نجسة. جاءت بالصدفة الكلمة اليونانية لكلمة «غسل» المستخدمة في هذا النص من إنجيل مرقس هي الكلمة اليونانية عينها التي تأتي منها الكلمة العربية «عمد» تحمل كل من الكلمتين مفهوم الغطس الكلي لشيء في الماء. وليس الرش {أو الصب} فقط.

كان الكتبة والفريسيين يعتبرون هذه القوانين واللوائح كجوهر ديني لا ريب فيه. التعامل بها مثله كمثل فعل ما يرضي الله. وانتهاكها كانت خطية. تكلم يسوع بلغة ما بينماتكلم الآخرون بلغة أخرى. لم يعمل يسوع أبداً بهذه التقاليد البشرية. كان مفهوم يسوع عن الدين مختلف تماماً عن مفهوم الكتبة والفريسيين.

لهذا وبخ يسوع معارضيه في الآيات التالية:

> ثم سأله الفريسيون والكتبة: «لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبزاً بأيد غير مغسولة؟» فأجاب وقال لهم: «حسناً تنبأ إشعياء عنكم أنتم المرائين كما هو مكتوب، هذا الشعب يكرمني بشفتيه وأما قلبه فمبتعد عني بعيداً. وباطلاً يعبدونني وهم يعلمون تعاليم هي وصايا الناس. لأنكم تركتم وصية الله وتتمسكون بتقليد الناس. غسل الأباريق والكؤوس وأمور أخرى كثيرة مثل هذه تفعلون» (الآيات ٥–٨).

في هذا النص، يتهم يسوع الكتبة والفريسيين بخطيتين معينتين.

أولاً أستخدم كلمات أشعياء النبي، قال:

«هذا الشعب يكرمني بشفتيه وأما قلبه فمبتعد عني بعيداً...» (قارن إشعياء ١٣:٢٩). قد يكمن اليهودي المتمسك بالشريعة في أيام يسوع بالبغض والحسد والغيرة والخصام والمرارة والسخط، قد يكمن بها في قلبه، ومع ذلك يعتبر بار إذا ما كان يتمم العمل بتقاليد الشيوخ. التمسك بالشريعة كان ولا يزال يميل إلى وضع التوكيد على أفعال الإنسان الخارجية ويهمل القلب. ولكن قلب المسيحية هو القلب الحقيقي! قال صموئيل في قديم الزمان: «...الإنسان ينظر إلى العينين وأما الرب فإنه ينظر إلى القلب»؛ (صموئيل الأول ٧:١٦). لا ينبغي ان توصف المسيحية بأفعال دينية خارجية فقط. فالإنسان الصالح هو من القلب الصالح. السؤال الأساسي هو: ما هي حالة قلب الشخص نحو الله؟ إذا كان السخط والمرارة والغيظ والغيرة والحسد والخصام تتملك قلوبنا، فالعمل بكل متطلبات الدين سوف لا يرضي الله. هذا ما كان يقوله يسوع للفريسيين.

ثانياً: لقد قال بان أولئك اليهود المتمسكين بالشريعة جعلوا تقاليدهم البشرية كأمر رسمي مثل كلمة الله. إذ قال: «وباطلاً يعبدونني وهم يعلمون تعاليم هي وصايا الناس. لأنكم تركتم وصية الله وتتمسكون بتقليد الناس»؛ (آية ٧ والآية ٨). أخطأ هؤلاء اليهود في اعطاء أهمية كبرى لتفسيرات خبرائهم الشرعيون المبدع بها لكي يحددوا ما قاله الله نفسه. اني أتعجب كلما أقرأ خلال الأنجيل من كلام يسوع الفظ. الأصحاح السابع من إنجيل مرقس هو الموضوع عينه. بل في سجل متى البشير المقابل لهذا الحدث، يقول في الأصاح ١٥ بان التلاميذ أتوا إلى يسوع بعد هذا الحدث وقالوا: «أتعلم أن الفريسيين لما سمعوا القول نفروا؟» نعم انه أغضبهم، انه فعله وهو يعلم تماماً بانه يفعل ذلك. إن كان يسوع يعلم بين المتدينين في أيامنا هذه، هل سيوبخ بالطريقة نفسها التعاليم والممارسات الدينية لهذه الأيام؟ أين توجد وصية الله في كتابه المقدس عن الأعمال والتقاليد التي يمارسها ويدعمها الرجال والنساء اليوم تحت راية الدين؟ أين السلطان للتعاليم البشرية المتعددة التي أدخلها الإنسان في الدين؟ ماذا يقول عن اعتقادات البشرية التي لا تحصى والتي بدلت بالتعليم الواضح لكلمة الله؟ الروح القدس نفسه تنبأ بان هذا النوع من الإرتداد سيحدث. قال بولس في رسالته الثانية إلى تيموثاوس ٣:٤ و ٤ «لأنه سيكون وقت لا يحتملون فيه التعليم الصحيح بل حسب شهواتهم الخاصة يجمعون لهم معلمين مستحكة مسامعهم. فيصرفون مسامعهم عن الحق وينحرفون إلى الخرفات.»

٢. تقاليد وعلاقات (مرقس ٩:٧-١٣)

في القسم التالي من الأصحاح السابع من إنجيل مرقس، يرسم يسوع صورة حية لما تفعله التقليدية {التمسك بالتقليد} لعلاقات الفرد مع المقربين إليه. يوضح ما يعنيه بمثل والدي شخص، حيث يقول في الآيات ٩-١٣:

> ثم قال لهم: «حسناً رفضم وصية الله لتحفظوا تقليدكم. لأن موسى قال، «أكرم أباك وأُمك. ومن يشتم أباً أو أُماً فليموت موتاً.» وأما أنتم فتقولون، إن قال إنسان لأبيه أو أُمه قربان أي هدية هو الذي تنفع به مني. فلا تدعونه فيما بعد يفعل شيئاً لأبيه أو أُمه. مبطلين كلام الله بتقليدكم الذي سلمتموه وأموراً كثيراً مثل هذه تفعلون.»

كانت شريعة موسى تقول: «أكرم أباك وأُمك.» تعني تلك الوصية أكثر من أن تكون لطيفاً فقط. تعني أيضاً ان تعتني بهما، وخاصة عندما يصيرا متقدمين في السن.

اخترع اليهود طريقة ظريفة للتخلص من مسؤلية الأقرباء. دعاها يسوع الطريقة الماهرة لوضع وصية الله جانبا. قالوا عن المال الذي ينبغي ان يستخدمونه لمساعدة آبائهم وأُمهاتهم بان «هذا قربان». قالوا: «أريد ان اساعدك يا اماه، واريد ان اسعدك يا أبي، ولكني لا استطيع لأن ما كنت سأسخدمه لمساعدتكما قد قدمته قرباناً لإلهي. وبالتأكيد انكما لا تريدان مني ان آخذ المال الذي وضعته أمام الله وأعطيكما اياه.»

إذا ما أعلن بان شيء ما سيقدم كقربان، فلا يجوز استخدامه للأغراض العادية؛ بل يكون لله ولا يلغى القسم. تجنب اليهود الأعتناء بوالديهم للعمل بهذا التقليد. إذا أعلن الإنسان بان مصادره ستعطى قربان، فلا يستخدم المصادر فيما بعد لمساعدة الوالدين. لا يمكن إلغاء القسم، لهذ صاروا بعدم مسؤولية.

لم يفهم اليهود الحقيقة العميقة بان الحياة كلها هي قربان أو تكريس لله. أقر يسوع بان الطريقة لتكريس شيء لله هي ان يستخدم ذلك الشيء لتلبية حاجة الإنسان. كان يسوع متأكدا تماماً بان اي قانون أو نظام يمنع الإنسان من مساعدة غيره الذي في حاجة حقيقية للمساعدة، يكون ذلك معارض حقاً لمشيئة الله. ما يمنعنا من مساعدة إنسان آخر لا يمكن أن يكون أبداً قانون مصدقاً من قبل الله. لذا، فان هذا التعليم بغير معنى، الذي يقول: « لا يمكنك أن تجري عملية نقل الدم لطفلي الذي على فراش الموت لأن هذا يعارض مشيئة الله. » لا يوجد شيء ما وراء حقيقة كلمة الله.

٣. تقليد والقلب (مرقس ٧:١٤-٢٣)

عاد يسوع ليتعامل مع المسبب لكل هذا. قال « المشكلة هي في القلب. » تقرأ الآيات ١٤-٢٣ كالآتي:

> ثم دعا كل الجمع وقال لهم: « اسمعوا مني كلكم وافهموا، ليس شيء من خارج الإنسان إذا دخل فيه يقدر أن ينجسه؛ لكن الأشياء التي تخرج منه هي التي تنجس الإنسان. إن كان لأحد أذنان للسمع فليسمع. » ولما دخل من عند الجمع إلى البيت سأله تلاميذه عن المثل. فقال لهم: « أفأنتم أيضاً هكذا غير فاهمين؟ ألا تفهمون أن كل ما يدخل الإنسان من الخارج لا يقدر أن ينجسه؟ لأنه لا يدخل إلى قلبه بل إلى الجوف ثم يخرج إلى الخلاء. » وذلك يطهر كل الأطعمة. ثم قال: « إن الذي يخرج من الإنسان ذلك ينجس الإنسان. لأنه من الداخل من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة، زنى، فسق، قتل، سرقة، طمع، خبث، مكر، عهارة، عين شريرة، تجديف، كبرياء، جهل. جميع هذه الشرور تخرج من الداخل وتنجس الإنسان. »

مع انه لا يظهر هكذا الآن، فان هذا النص عندما نطق به في أول الأمر اتضح وكأنه ثوري تماماً. كان يسوع يجادل مع خبراء قانونيين قبل ذلك عن التفسيرات التقليدية للشريعة. قد أوضح عدم قابلية العمل بالطقوس وغسل الأيدي. انه أوضح أيضاً كيف يمكن للتمسك الشديد بالتقاليد أن يقود إلى إنتهاك شريعة الله. ولكن في هذا النص قال شيء أكثر رعباً، فانه أعلن بإن ما من شيء يدخل الإنسان يمكن ان ينجس ذلك الإنسان، لأنه مهما دخل فيه، يقبله الجسم فقط وليس القلب. لم يؤمن بتلك الحقيقة حينذاك، ولا يؤمن بها اي يهودي أرثوذكسي اليوم. وردت في الأصحاح ١١ من سفر اللاويين قائمة بأسماء الحيوانات التي كانت تعتبر نجسة وممنوع أكلها. لم يأخذ اليهود اي لحم من هذه الحيوانات للأكل لأنها كانت نجسة. العبارة التي قالها يسوع في الأصحاح السابع من إنجيل مرقس قد أمحت الفروقات بين النجس والغير نجس والتي أرشدت السيرة اليهودية لمئات السنين. فلا عجب انهم بهتوا. كان يسوع يقول بالحقيقة، ان الأشياء والحيوانات لا يمكن ان يكون فيها نجس أو غير نجس. الشيءالوحيد الذي قد يصير نجساً هو الإنسان نفسه؛ وكانت الطريقة الوحيدة التي يصير بها الإنسان نجسا هي من خلال أفعاله أو أفكاره. كان ذلك تعليم جديد كاسح.

كان اهتمام الله هو عن الطهارة الروحية الداخلية. أقرّ يسوع بان الطهارة الاخلاقية والروحية هما الأكثر أهمية من الطقوس والممارسات الخارجية.

٤. التقليد وحاجة الإنسان (مرقس ٧:٢٤-٣٠)

استمر مرقس البشير يسرد حدث آخر يظهر في أول لمحة وكأنه موضوع مختلف كلياً. ولكنه ليس كذلك. بل هو النقطة نفسها. لاحظ إن كنت تستطيع ان تدرك الرابطة في الآية ٢٤ إلى ٣٠:

> ثم قام من هناك ومضى إلى تخوم صور وصيداء. ودخل بيتاً وهو يريد أن لا يعلم أحد.

فلم يقدر أن يختفي. لأن إمرأة كانت بابنتها روح نجس سمعت به، فأتت وخرت عند قدميه. وكانت الامرأة أممية وفي جنسها فينيقية سورية. فسألته أن يخرج الشيطان من ابنتها. وأما يسوع فقال لها: « دعي البنين أولاً يشبعون. لأنه ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب.» فأجابت وقالت له: « نعم يا سيد. والكلاب أيضاً تحت المائدة تأكل من فتات البنين.» فقال لها: « لأجل هذه الكلمة اذهبي، قد خرج الشيطا من ابنتك.» فذهبت إلى بيتها ووجدت الشيطان قد خرج والابنة مطروحة على الفراش.

ما هي الرابطة؟ ترتبط قصة ابنة المرأة الفينيقية بما قد أظهر قبل قليل، لأن هناك إشارة إلى الخروج من تقليد تلك الأيام. ها هنا موعظة يسوع المعلنة. من المحتمل ان يسوع قد ذهب عمداً إلى ضواحي الأمم ليعلن بجولته هذه بانه جاء ليطلب ويخلص ويحب كل الناس. انه ذهب عمداً إلى هذا الدولة الأجنبية كمثال حي وموعظة حية.

طلبت إمرأة أممية وتوسلت إليه ليشفي ابنتها. تبدو اجابة يسوع إليها قاسية في اللمحة الأولى. إذ قال في الآية ٢٧: « دعي البنين أولاً يشبعون. لأنه ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب.»

أريد أن أوضح ثلاث حقائق عن إستجابة يسوع لتساعدنا ان نفهمها بصورة أفضل. أولاً: اني مقتنع تماماً بان هذه المحادثة بين يسوع والمرأة الأممية قد تمت من أجل فائدة التلاميذ. كان يريد لهم أن يسمعوا ما قاله ويروا ما فعله. وفيما بعد يسألهم عن المغزى. ثانياً: الكلمة التي استخدمها يسوع لكلمة « كلاب » ليست هي الكلمة اليونانية العامة لل « كلاب » والتي تعني كلاب البرية. بل استخدم كلمة مختلفة، كلمة تصغير التي تشير إلى جرو منزلي صغير. باستخدام هذه الصيغة، انه امحى المفهوم القبيح لكلمة كلب. ثالثاً: لم نكن نحن هناك وبالتالي لاندري النبرة الصوتية التي تكلم بها. قد سمعت أخ يلتفت إلى أحد شيوخ كنيستنا ويقول: « لماذا ايها الشيخ الوغد؟ » قد يقول أحد هذا بنبرة صوت مستخفة أو بصوت محب. يوجد الفرق كله في النبرة الصوتية. كان للأخ نبرة صوت محبة. لم نسمع نبرة الصوت التي تكلم بها يسوع. ولكني أكيد بان صوته أخذ القباحة عن كلماته.

قال يسوع لهذه المرأة بموجب ذلك: « الخلاص هو لليهود أولاً. هل يصلح أن يؤخذ الطعام الذي للبنين اي اليهود ليعطى للكلاب المنزلية اي الأمم؟ » وقد عنى بذلك ما يلي: « اني يهودي يا إمرأة. وأنت تعلمين ما يظنه اليهود عن أُناس مثلك. انهم يروا انفسهم كأبناء الله وأما أنتم فمثل الكلاب. ماذا تقولين في ذلك؟ » فأخذت المرأة اللقمة ونهضت. أجابت وقالت: « تلك حقيقة، يجب أن يعطى الطعام للبنين أولاً، ولكن البنين أنفسهم سيطعمون صغار الكلاب التي تحت مائدتهم بما تبقى من فتات.» ويقول مرقس البشير انه بسبب اجابتها شفى يسوع ابنتها. من الواضح ان فطنتها ومثابرة إيمانها قد تركتا انطباعاً قوياً في يسوع. وعندما عادت المرأة إلى البيت وجدت ابنتها قد شفيت.

يمكنني ان أتصور ذلك فيما بعد، عندما كان يسوع وتلاميذه لوحدهم، سألهم: « ماذا تظنوا عن كل ما سمعتم ورأيتم اليوم؟ » كان عليهم أن يفكروا في ذلك كثيرا. أليس كذلك؟ انتهك يسوع التقليد مرة أخرى. قد اهتم بأجنبية وساعدها، وأظهر رحمة على أممية وشفاها. كان على التلاميذ ان يضعوا كل ذلك في ذهنهم. وكانت المعاني المضمونة لهذا الحدث قوية وواضحة لهم ولنا أيضاً.

الخلاصة

ما هي التقاليد والتحيزات التي تخفيها الآن في قلبك التي تمنعك عن محبة ومساعدة أناس معينين؟ هل اخترت شخص ما لذي لم تكن تحبه حقاً وفعلت له عمل رحمة؟ هل اخترت شخص ما تختلف معتقداته وممارساته الدينية عن ما تؤمن بها وفعلت له عمل رحمة قصداً؟

اني أؤمن بان قد تعجبنا كلنا بالحواجز التي سمحنا لها ان تنموا في قلوبنا. مسألة

الحقيقة تواجه التقليد انتجت الصليب. أخفق يسوع ان يلبي باتمام المستوى القياسي لليهود المسبق تحديده. انه لم يبرر تفسيراتهم التقليدية للتوراة {العهد القديم}. انهم صلبوه لأنهم فضلوا التقليد على الحقيقة. لا بد ان يواجه كل منا هذا الخيار اليوم. لا بد ان يقرر كل منا إن كان السلطان الآساسي لتوجيه حياتنا سيكون الحقيقة أو التقليد. من النادر ان يتفق الاثنين معاً. ولكن لنا ثقة تامة؛ إذ نعلم بان الحقيقة وحدها هي التي تحررنا.

جميع الحقوق محفوظة ٢٠٠٧